أبي السجين 118

رواية الكاتبة تغريد عارف النجار

لوحة الفسيفساء لليافعين

دراسة اجتماعية تحليلية

د. ريما زهير الكردي

مقدمة

تطرح رواية "السجين رقم 118" عددًا من القضايا الاجتماعية التي ضمنتها الكاتبة تغريد عارف النجار في لوحة فسيفسائية مليئة بالأحداث التي في أطوائها تتضمن رسائل متناغمة من واقع معاش في كثير من البيوت العربية عمومًا ضمن الخط الروائي المتسق من خلال شخصيات متفاعلة تعبر عن حضورها من خلال زمنها ومكانها وأعمالها وانعكاس ذلك على سيرورة الأحداث الكلية.

رواية "السجين رقم "118 الصادرة عام 2022 عن دار السلوى للكاتبة تغريد النجار تطرح عددًا من القضايا الاجتماعية التي يعيشها اليافع العربي منطلقًا من المنظومة الأخلاقية التي تتعرض لها شخصية الرواية الرئيسية والشخصيات ذات الصلة المباشرة بها وفق تفصيلات منبثقة من حدث كبير وتلك التفصيلات توزعت على فصول، وكل فصل يحمل عنوانه الفرعي المستقل متنقلًا السرد بين الراوي العليم المطّلع على مجريات الحدث والراوي بضمير المتكلم، ويقوم السرد بكشف شفيف ضمن الإطار الاجتماعي الذي ينطلق منه الأدب وفيه يغوص،

إن اختيار عنوان الرواية يترك لنا التساؤل حول من السجين حقيقة، هل هو من وراء القضبان أم الآخرون الذين يعانون كل في زنزانته وفي نطاق أزمته الذاتية سواء الاجتماعية أو المادية أو غيرهما و،في العرض الآتي ما يجيب هذا التساؤل.

ملخص الرواية

تحكي الرواية عن الأب عصام والذي تعرض للسجن بسبب مكيدة مدبرة قام بها أحد الطامعين بأرضه ممن يريد أن يوسع مزرعته التي يريد أن ينشئ عليها تجارة مشبوهة متعلقة بالتبغ المهرب وتزوير الدولارات لتحقيق كسب سريع متخطيًا بذلك كل الأخلاق والأعراف والقيم، ولأجل ذلك استغل ذلك الطامع أحدَ اللصوص فدسّ حقيبة في عُليّة "سِدّة" بيت عصام، فداهمت الشرطة منزله ووجدت الحقيبة مليئة

بالدولارات المزورة، والمفارقة في الأمر أن الابن "حسام" هو من قام بإثبات براءة أبيه بعد القيام بعدد من المغامرات للوصول للحقيقة وبمساعدة مجموعة من أصدقائه، ومن خلال تلك مغامرات حسام تتطرق الكاتبة تغريد النجار لعدد من الموضوعات التي يواجهها المراهقون في مجتمعاتهم، وهذه الدراسة تنحو لتوضيحها من خلال تحليل هذه الرواية المليئة بالتفصيلات التي تقودها عدد من الشخصيات الحيوية والفاعلة خلال فصول الرواية.

سردية الرواية

تقوم هذا الرواية في أساسها على الصراع، وهو أساس تقوم عليه كبرى الروايات العالمية، والصراع بين الخير والشر أو الصراع بين الحق والباطل وبين العطاء والسرقة وغيرها من الطباقات التي تُبنى عليها الأحداث تبدو واضحة حيث ضمنتها النجار في روايتها هذه، ويمكن أن تفرز تلك الصراعات قيما عليا فالضد يظهر حسنه الضد كما في القاعدة البلاغية الشهيرة، لنرى بنى متنوعة للعائلات ومنها العائلة المستقرة وغيرها التي تعيش الخلافات، كما نعيش التنمر والصداقة في مواقف متوازنة، والجبن والشجاعة، والقسوة والحب، وغيرها.

في الدراسة هذه سنتطرق إلى عدد من تلك القضايا التي ضمتها الرواية، وفي جمعها تتشكل لوحة فسيفسائية إبداعية شكّلتها النجار على أرضية روايتها هذه.

ومن القضايا الاجتماعية التي برزت في هذه الرواية ما يأتي:

- **أهمية الانتماء العائلي**

تؤكد الرواية على أهمية التماسك العائلي، إذ بتصدّر الابن "حسام" محاولة الكشف عمن ترصّد للأب عصام وزج به في السجن ليحمل رقم 118، ومنذ المشهد الأول للرواية نرى حسام متفاعلًا مع الحدث الابتدائي: " بدأ قلبي يدق بسرعة، واستحوذت الأفكار السيئة على تفكيري، أسرعت الخطى محاولًا دخول العمارة، ولكن أحد أفراد الشرطة منعني من الدخول. صحت مذعورًا: " هذا بيتي! دعني أدخل! أريد أن أطمئن على عائلتي!"[1]

وبالرغم من حداثة سن حسام والذي يدرج في الصف ما قبل الثانوية العامة وفق زمن الرواية في بدايتها، أي وفق العمر الواقعي للطلاب في تلك المرحلة يقرب السابعة عشرة من عمره، إلا أن حسام يتصرف كما لو أنه المسؤول عن هذه العائلة، فلم يقل أهلي أو أسرتي، بل كانت كلمة " عائلتي" هي ما

[1] رواية أبي السجين 118، تغريد عارف النجار، دار السلوى، عمان، الأردن. 2022. ص6

يصف بها أهله وذلك لإحساسه العالي بالمسؤولية لكأنه هو العائل لها، وإن لم يكن بالإنفاق، إلا أنه فعل ذلك بالاهتمام والرعاية كما في الاقتباسات الآتية:

"ركضت نحو أمي أحتضنها وأقول: اهدئي يا أمي، اهدئي!"،[2] وبعد أن تم القبض على والده وبدأت الأم تنهار:" ضممت جسد أمي النحيل إلى صدري محاولًا أن أحميها من نظرات الجيران وهمساتهم." واختيار الفعل " أحميها" يعبر عن رجولة واضحة يمارسها حسام، كما أنه في مشهد آخر بعد أن رافق أمه إلى البيت وحاولت أن تشرب الماء لكنها سكبته دون وعي منها من هول الصدمة، يقول: "أخذتُ الكأس من يدها وبكل رفق مسحت فمها بمنديل..."[3]

من خلال رسم ملامح حسام الخارجية التي اختارتها النجار بدقة رأينا "حسام" بهيئته النحيلة يتحرك أمامنا لتضفي مزيدًا من المصداقية على الشخصية، فمزاوجة الوصف الشكلي مع الفعل الديناميكي يخلق أمام القارئ صورة متكاملة، تجعل الشخصية حية في مخيلة القارئ فيراها تتحرك أمامه وكأنها شخصية حقيقية تحمل من ملامحنا مشارعنا وأفكارنا الكثير ضمن مشهد أكثر واقعية.

لا بد أن نتأمل اسم شخصية بطل الرواية "حسام" بما يحمل اسمه من مدلولات تعبر عن القوة باعتبارية أن الحسام يعني السيف، كما أن أصل الاسم من "حَسَمَ"، أي قطع واستأصل، وقد فعل ذلك بشخصيته الديناميكية المندفعة نحو الحق، واستطاع بسلسلة من التحريات القائمة على التخطيط والمغامرات التي بادر بها ببتر شرور المجرم الذي لفق لأبيه التهمة واستئصال بغيه وكف أذاه ليثبت الحقيقة ويخلص أباه من سجنه.

وعندما بدأت أم حسام تتابع القضية مع المحامية خديجة يتدخل حسام كي يشارك باللقاء بحماسة قائلًا: "أنا لست صغيرًا...أنا ابنه الوحيد...أريد أن أكون معك خطوة بخطوة، وأتابع تطورات القضية."[4]، كما أنه بادر إلى الاتصال بالمشكوك به إبراهيم ومن خلاله أمسك أول خيط القضية لتبرئة أبيه. بالرغم من أن التربية التي تعرض لها كانت شديدة لكنه كان يدرك أنه الابن الوحيد لذويه وبالتالي كانت لهما خطة واضحة في تربيته وقد تقبل حسام الأمر كما هو، وفي ذلك رسالة مبطنة تمررها النجار لليافعين أن لا يتعجلوا الحكم على نمط التربية الذي قد يتعرضون له في أسرهم، ففي ذلك فائدة لهم في الحياة والمستقبل.

- **ظاهرة التنمر**

[2] المصدر السابق ص6
[3] المصدر السابق ص 7
[4] أبي السجين 118، النجار، ص25

تنتشر ظاهرة التنمر في المدارس الحديثة بشكل ملحوظ، إذ ينشغل الآخرون بالحط من قدر زميلهم حسام بعد انتشار خبر القبض عليه وحبسه، وبكل ما سبب الأمر من هشاشة نفسية لحسام بعد التعدي عليه لفظيا من أقرانه " شعرت بقلبي يهوي وأنا أرى سلطان وسط شلته يركز نظرته لي، وأيقنت أنني ضحيته التالية نفش نفسه وقال بصوت ال متعمدا ن أسمعه:" يعني...أكيد كما يقول المثل ابن الفرخ عوام، يا جماعة الآن فقط عرفت أين اختفى هاتفي...أقصد عرفت من سرق هاتفي."[5] وبالطبع فإن رد الفعل المتراكم داخل حسام سيكون غاضبًا، " شعرت بالغضب...كيف يجرؤ سلطان على أن يهزأ مني ومن والدي..."[6] وفي ردة فعل متعمدة حاول حسام أن يهاجم سلطان ليوقفه عن تنمره " سرت نحوه وأنا أقول في نفسي يا قاتل يا مقتول."[7]

هذا المونولوج يوحي بعظم الشعور الكامن في حسام إذ لن يردع نفسه من القتل للدفاع عن كرامته وسمعة أبيه، واليافعين في هذا العمر ينطوون على كمية متدفقة من المشاعر التي تحرك أفكارهم وتحدد سلوكياتهم الدافعة إلى التهمة أحيانً، ولو كان الأمر بعيدًا عن أعين الرقابة التي يمثلها الأستاذ منير والذي فض الاشتباك المُتوقع: " يلا إنت وهو، حان وقت الدرس. توجهوا إلى صفوفكم حالًا حالًا! هذه مدرسة وليست ساحة قتال."[8]

على أن معالجة الأستاذ منير للتنمر الذي مارسه سلطان لم يكن جذريًا بل نحا إلى أسلوب قطع الخلاف الدائر بتخدير اللحظة وصرف الأطراف المتنازعة، وهي الحال المتداولة في معظم مواقف التنمر دون البت في توجيه المتخاصمين للسلوك الإيجابي سواء المتنمِّر أو المتنمَّر عليه بما يترك المواقف مفتوحة وقابلة للاشتعال لاحقًا ولأسباب متنوعة.

وفي التنمر الكل مسؤول، الطلاب، والمعلمون، والإداريون، وقد أظهرت حنين زميلة حسام موقفًا شجاعًا دفاعًا عنه إذ أسرعت نحو سلطان وصرخت بغضب: " ألا تخجل من نفسك؟ بدلًا من أن تساند زميلك تهاجمه وتتّهمه؟"[9]

لقد كان موقف حنين وهي الطالبة في المدرسة موقفًا نوعيًّا داعمًا يحمي حسام وينبّه سلطان إلى غلطه في تجاوزه اللفظي على زميلهما، ومن هذا الموقف قامت النجار بكل سلاسة بالتمهيد لحضور حنين الشابة كشخصية لها ملامحها الخاصة كموازن لحضور شخصية البطل الشاب ليكون ثمة مشاركة قادمة بين

[5] المصدر السابق، ص19
[6] المصدر السابق، ص20
[7] المصدر السابق، ص20
[8] المصدر السابق، ص20
[9] المصدر السابق، ص 19

الطرفين، ويوطئ للتركيز على الصداقة، وهو الموضوع اللاحق الذي يظهر بحسن الضد بعد تناول جزئية التنمر كحجر من لوحة الفسيفساء العامة.

- **قيمة الصداقة**

يقال في الصداقة والأصدقاء" الأصدقاء الحقيقيون هم من يمكنك الاتصال بهم عند الساعة الرابعة فجرًا ويجيبون اتصالك." وهكذا كان جابر لصديقه حسام، إذ ومنذ الفصل الثاني، استحضرت النجار شخصية جابر الذي يمثل ذلك الصديق المختلف في مواهبه وقدراته عن حسام، فبينما يبدو حسام متفوق أكاديميًا، لا شأن له بالموسيقي أو الرياضة، وعلى النقيض نرى جابر الذي يعاني من "الديسيلكسيا" أو ما بعرف بعسر القراءة، وهنا تحاول النجار طرح بعضًا من التحديات التي تواجه طلاب المدارس تعليميًا، وهو واقع معاش ومرئي، وعلى الرغم من كل ما سبق إلا أن في دلالة اسم جابر ما يعبر عن جبره لكسر حسام الذي سكنه بعد سجن أبيه. فالأصدقاء ليسوا بالضرورة أن يكونوا متشابهين بل في اختلافهما تنوع وإثراء، وفي هذا السياق اتجاه تدعونا النجار إلى النظر فيه ألا وهو تقبل الذات، وتنمية مواهبها في حال كان ثمة تحديات أخرى في شؤون مغايرة، فجابر أيضًا موهوب بالموسيقى التي أبدع فيها وهي نقطة قوة تمت تنميتها بالتوازي مع جهود والدته تعليمه القراءة والسعي إلى تحفيزه الأكاديمي لتعزيز إحدى ذكاءاته. ثمة تاريخ شخصي بين الشابيْن حسام وجابر بما يجعل أفعال أحدهما متوقعة عند الآخر، ولذلك مثلًا "لم يصدق جابر ما سمعه، فهو منذ طفولته يعرف والد حسام وعائلته جيدًا."[10] لعلاقة الممتدة بين الطرفين تجعل المشاركة أصلًا ثابتًا ينبثق عنه أفعال ومواقف تؤكد دعم الطرفين لبعضهما، فعلى النقيض من سلطان الذي كان يتنمر على حسام، نرى جابر الذي لم يصدق التهمة الموجهة لأبي حسام تمامًا كما فعل جابر في طفولته عندما كان يساعد حسام ويصرف عنه تنمر الأطفال في المراحل الابتدائية ممن كان يسخر من قدراته المتدنية في المدرسة، " لم تكن المشرفة التربوية وحدها فقط من ساعدت جابر، كان هناك حسام أيضًا. لن ينسى جابر أبدًا كيف صادقه حسام، ومنع الآخرين من الاستهزاء به وبقدراته."[11]، وبالمقابل وفي جملة مطمئنة تلخص العلاقة الإيجابية بين الصديقين، يقول جابر لحسام: " ستظهر الحقيقة قريبًا يا صديقي، هيا دعنا نعيد كل شيء إلى مكانه."[12]

- **الخلافات الأسرية**

[10] أبي السجين 118، النجار، ص 9
[11] أبي السجين 118، النجار، ص 11
[12] المصدر السابق، ص 11

تحت مسمى " مناوشات عائلية" تطرح النجار توتر العلاقة بين والديْ حنين " ما أن تخطت عتبة الباب حتى شعرت بجو البيت المتوتر، هو شعور صار مألوفًا لديها من كثرة تكراره طيلة الأيام والأسابيع السابقة."[13]

توالت العبارات المكثفة التي تعبر عن بيت حنين وفق واقع مر تعيشه؛ علا صوت والدها ووالدتها في شجار عنيف، حتى لا تسمع لشجار وأصوات التكسير الذي يليه، لا بد أنك في وسط معركة عائلية، أنا وفراس عانينا من هذه المناوشات بين أبي وأمي في طفولتنا، لماذا لا يستطيعان التفاهم إلا بالشجار،"[14] وفي سبيل إيجاد البدائل النفسية الداعمة جاءت من جديد الصداقة وهي إحدى القيم العليا في هذه الرواية، فحنين التي لم يكن لها أخت استنجدت ومنذ طفولتها برانية صديقتها، ومن خلالها تعرفت إلى جابر ابن خالتها وحسام صديقه الحميم، إذ "أصبحت رانية الملاذ الآمن لها، تقضي معها الوقت الطويل لتبتعد عن جو البيت المشحون...كانت حنين تشعر بالراحة والأمان عند زيارة صديقتها رانية، فجو بيتها مريح يسوده المرح والمزاح..."[15]

الخلاف الأسري بين والدي حنين كان بسبب الزواج المبكر، وهي رسالة اجتماعية أخرى تمررها النجار كحجر آخر مكوِّن للوحة الكلية للرواية، فعندما اجتمع الوالدان بحنين لإخبارها بقرارهما في الانفصال من غير طلاق قالت الأم: " يا حبيبتي نحن نقوم بهذه الخطوة من أجلك. فقد لاحظنا كم يؤثر شجارنا في نفسيتك، لقد تزوجنا في عمر صغير، و..."[16] ومن خلالها تمرر لليافعين عند الإقدام على خطوة الزواج إلا بعد تحقُّق النضج اللازم لتحمل مسؤولية أسرة وقد بلغت نسب الطلاق في المجتمعات العربية أرقامًا غير مسبوقة، على أن الطلاق هنا غير مرتبط بالتعليم الجامعي، بل ثمة مؤثرات أخرى في مجتمعاتنا المعاصرة، وكل ما سبق يخلق جيلًا من الضحايا، فالأبناء يحملون أوزارًا لا قوى لهم بها ومن أخطرها شعورهم بالوحدة والنبذ وهما شعوران يخلقان فراغًا قد لا يُملأُ بشكل إيجابي بما يقود للانحراف في كثير من الأحيان، ولكن حافظت النجار على بساطة التبعات والمصائر بما يعزز من نمو الشخصية لتكون إيجابية وتقدم الدعم للشخصية الرئيسية حسام والذي عبر تطور الأحداث تحولت الصداقة إلى حب مبكر بين قلبين شابين وهذا متوقع ضمن السياق الاجتماعي فكلاهما كبرا معًا في مدارس مختلطة، وجد كلٌّ منهما في الآخر سلواه على التحديات التي يواجهها.

الخاتمة

---

[13] المصدر نفسه ص 22

[14] المصدر نفسه، ص 22، 23

[15] المصدر نفسه، ص 44،45

[16] المصدر نفسه، ص 46

استطاعت الروائية المخضرمة تغريد عارف النجار أن تحوك رواياتها من خلال انعكاسات اجتماعية بسلاسة مستخدمة المفردات المتنوعة والمزاوجة بين الفصيحة والعامية لتعطي خليطا من الواقع المصور فيعبر عن مشاعر شخصياتها وصراعاتهم، فالأحداث تمتزج بعاطفة تعالج من خلالها مشكلات وقضايا فيها نماذج ملونة لتحيط بأنماط متعددة ومن استطرادات مترابطة، وفي هذه الرواية تشكلت هوية محلية منطلقة من خصوصية الشخصيات للوحة الفسيفسائية لشخصيات غنية حملت كل منها مقولات مُحرّكة للأحداث.

فبالإضافة إلى أن رواية الفتيان في عمومها العربي تتجه إلى الواقعية الاجتماعية إلا أن النجار تأخذ الكتابة للفتيان لمنحى أرقى من خلال التوليفة التي تعرضت إلى كثير من طبقات المجتمع ومنها الأب الملتزم وظيفيًا إلى الأم الرائدة مهنيا والابن المتقدم أكاديميا والصديق الذي يعاني من الديسليكسيا والصديقة التي تعاني من وضع أسري مضطرب في بيتها بسبب انفصال الوالدين، والطامع الجشع المستعد للسرقة في سبيل تحقيق أطماعه الشريرة، وتوظيف عددًا من المحتاجين ماديًا لتحقيق مآربه وفي ذلك تنبيه مباشر للقراء من السقوط في مستنقع الخراب المجتمعي بسبب العوز والجهل. كل النماذج السابقة بمواقفها البارزة لونت اللوحة العامة وزادتها غناءً. ق